OPEN ACCESS
Al-Qamar
ISSN (Online): 2664-4398
ISSN (Print): 2664-438X
www.alqamarjournal.com

الاجواء الشعرية فى مكة قبل الاسلام
(The poetic Atmosphere in pre-Islamic Mecca)

Dr. Imrana Shahzadi
Assistant Professor of Arabic GC Women University, Faisalabad
Maryam Siddiqa
Lecturer in Arabic GC Women University, Faisalabad

Abstract

Pre-Islamic poetry is deliberately a criterion for the correctness and eloquence of the language, supporting the language of the Quran and its meanings, and most of this poetry was attributed to the poets of the desert. This article deals with the poetic atmosphere in pre-Islamic Mecca and sheds light on the key features of the poetry of great Meccan poets. It finds that Arabic poetry is closely allied to the history and culture of its people, the tedium of peregrine life, rising of Islam, self-creation of the deepest senses of the Arabs, self-identity, the interaction and cross fertilization with others civilization, etc. Through this study we can see the manifestations of pre-Islamic life in all its aspects and all the news and narratives that appear in the Arab thought at that time.

Keywords: Poetry, Arab, Mecca, Pre-Islamic

مقدمه

لا شک فیه ان الشعر الجاهلی عمداً معیاراً لصحة اللغة وفصاحتها،داعماً للغة القرآن ومعانیه،وکان معظم هذا الشعر منسوباً الی شعراء الصحراء فما کان مولاء الشعراء یتکلمون لغة بدویة لانهم لاینظمون لانفسهم، وینظمون یُسمع نظمهم ویؤدی دوراً فی فخر او هجاء او مدحٍ او حتی فی مرسلة غزلیة وقد یدخل فئ منافسه علی جائزة معنویة کالتعلیق فی الکعبة او لتسیر به الرُکبان فوق کثبان

CC BY

الرمال،وبين القبائل والمنازل والحوافير، فلو كان هذا الشعر ينظم بلغة بدوية تنحصر فى لهجة قبيلة من القبائل دون اخر ى لما ادّى دوره المقصود ، وسنرى ان اللغة التى صيغ بها معظم الشعر الجاهلى هى اللغة التى اصطنعتها قريش وتحدثت بها بين القبائل، فغدت اللغة التواصل بين اللهجات البدوية وغير البدوية ، ولهذا السبب نزل بها القرآن۔ واذا كانت لهجة قريش لغة الشعر الجاهلى البدوى ، فهى اصلاً لغة شعراء مكة ، ولن نجد فارقاً كبيراً بين الشعر البدوى وشعر مكة، على صعيد اللغة لفظاً ومعنىً ،ونرى الاختلاف النظرى بين الفريقين فى الامرين مما: الطبيعة والذوق وايضاً يحتاج الامر الفحصَ بالتفصيل فهل كان هولاء الشعراء جزاً من شعراء الجاهلية ام انهم كانوا نسيج وحدهم۔تتميزوا من الآخرين، نحن ندرس الحياة قبل الاسلام فى مكة من جانب حضارى ، وتصوير البيئة التى شكلت مهد الديانة الجديدة ورعت نشاتها وهذا الجانب المهم اهمل المورخؤن تاريخ حياة شعراء مكة وجمع انتاجهم الشعرى وبسبب هذا نحن نتصور ان قريش، ومكة بصورة عامة لم تقض حياة ادبية التى عرفتها البادية وايضاً نحن نظن ان معظم مكة قبل الاسلام هو شعر شرک وكفر وشعراء قريش كانوا مع قريش ابان الدعوة، على الدين الجديد فى حملة مسعورة بهاجمون محمداً والمسلمين۔وندرس ان من امن من الشعراء القريشيين ،ومدح الاسلام والنبى حفظه له شعره فيما اهمل غيره ان الدين الاسلامى نزل بمكة ، وعلى محمد صلى الله عليه واله وسلم ومكة كانت موطن قريش،او فرع من قريش وقليلون من سكنوها من قبائل،ان معظم الشعراء المكيين هم اذاً قريشيون ، شكلوا مكة عالمهم وافقهم وانتماؤهم العائلى،ومجال اهتمامهم وكانت تلک الجميع لهم مركز النشاط التجارى ومع ان الحجاج من كل ناحية كانوا ياتون داخل مكة وهم عادة يتلاقون ويتبادلون ويتفاعلون فى الاسواق وخارجها وتتجلى هنا ان شعراء مكة الكبار نظموا قصائدهم فى احداث مرت بها مكة الكبار نظموا قصائدهم هذه القصائد هو ما قيل فى معارضة الدعوة الاسلامية فى بدء ظهورها، او فى امتداحها والدفاع عنها قبلاً وبعداً۔هذا ما حفظه المسلمون واراد الشعراء انفسهم ان يذكروا به۔[1]

فنجد فى اخبار مكة ان الشعر لا يقوله الكبار والصغار من قريش وحدهم بل يقوله جميع ما يذكر فى تاريخها من قبائل خزيمة وجرهم وصولاً الى اسماعيل عليه السلام ۔ ان الحديث عن اجواء شعرية فى مكة قبل الاسلام هو فى الوقت نفسه ، حديث عن ملامح الحياة الاجتماعية والثقافية وفى الاقتصادية فضلاً عن العسكرية فى مكة۔ان مكة على رغم تميزها الدينى والاقتصادى ، لم تكن جزيرة معزولة ، لقد كان لقريش ظهور مدينى فى بطاح مكة ، وظهور شبه بدوى فى ظواهر مكة ، كما كان لقريش حُلَقاء وعُملَاَء من قبائل بدوية واكتسب المكيون احياناً عداوات من قبائل اخرى كل هذا الاختلاط ولّد شعرا فاذا كان الشعر واقعاً والتزاماً وتسجيلاً لموقف او حدث فان الشعر الذى عرضَتْه مكة كان

[1] جعفر محمد بن جرير الطبرى، تاريخ الامم والملوک، تحقيق محمد ابوالفضل ابراهيم (بيروت: ب ت)، 232:1۔

خليطاً من كل هذا اما الكيان الاجتماعى والدينى لدى قريش فقد بقى كامناً على ما هو عليه طيلة فترة زمنية حتى جاء الاسلام بدعوة المحمدية فاظهر التدهور الاجتماعى والسياسى فى مكة.[2]

اما قريش فقد اسس سلطتها فى مكة قصى كلاب وكان اول من اقام حول مكة مسكنا او مقاما ، ولقد اكتسبت مكة اهميتها الدينية والاجتماعية حيث كانت بقية الحجاج ومطلب التجار وايضاً نلاحظ ان التالف القلبى كان ملفتا للنظر ،و التضامن الاجتماعى والسياسى والانتماء كان كبيراً فى العصر الجاهلى حيث كانت القبيلة كالجسد الواحد- عدم وجود حكومة مركزية ينتظم احوال هذه القبائل ، فالعادات والتقاليد الاجتماعية التى سادت الحياة فى المجتمع المكى تجعل من الحياة الاجتماعية بعيدة الاثر فى التنظيم الحياتى فازدهرت الحالة المالية والاقتصادية حتى اصبحت مكة موئلاً للتجار والثقافات وهذا يجعلها تتبوا مكانة تاريخية يتمكن الناس فيها من تملك القدارت المالية والمصرفية - فولد التعاون والتنافس بين قريش وغيرها من القبائل ، وكان لعمال دورهم فى الحياة الاجتماعية - وبسبب ذلك تدور المعارك مثل حرب الفجار التى كان سببها العصبية والنفوذ وجب السطو والقرصنة بين عروه بن عتبة بن كلاب والبراص مما ادى الى حرب ضراس بين القبائل -

لقد كانت الديانات سبب الكشف عن الاجانب الاكبر من حياة الامم القديمة لها اهمية لدى افرادها اذ كانت حياتها تقوم على الناحية الروحية والعرب الجاهليون قد عرفوا ديانات عدة ان كثيرين منهم ملاء م فراعتهم الروحى بالايمان بآلهة الاوثان والاصنام فضلا عن ايمانهم بالله ، ولما كان الشعر ديوانهم ومرآة حياتهم فقد عبروا فيه عن ذلك الايمان كما عبروا عنه من النثر الفنى ، استطاعت ان تنفذ الينا من الضياع والنسيان.[3]

ان المكانة الاجتماعية والسياسية والدينية - فى العصر الجاهلى - كانت على اتمها فى قريش ، حيث كان القريشيون يقدمون كل التسهيلات من سقاية ورفادة للحجاج واطعام للناس فى مكة وغيرها - ولقد حافظت قريش على مكانة مكة عدة قرون لذلك مثلت فى وضيعتها هذه منارة للجزيرة العربية يؤمها الناس لاغراضهم المتعددة ، ساعد على ذلك تفهم القريشيين لمُهَماتِهم المختلفة وتقاسمهم هذه المهمات و مساعدة بعضهم بعضاً ، كل ذلك ساعد لتغذوا مكه مركزاً تجارياً وحضارياً ودينياً ، فعلى الصعيد الدينى، ظهر فيها رجالات ذووا افكار هامة فى معرفة الله سبحانه وتعالى - حرصوا على الدين الحنيف كان معروفاً قبل الاسلام ، وعلى الصعيد الاقتصادى، فقد احتلت مكة مركزاً تجاريا هاماً تمر بها القوافل ذهابا وايابا وهذا الوضع جعلها ثرية، وعلى الصعيد الاجتماعى فلقد كان للعرب اسواق تجارية يجتمعون فيها لتبادل السلع والآراء - وهذه اللقاء ات التجارية والاقتصادية لابد لها من اقامة

[2] د عز الدين ابى الحسن على، الكامل فى التاريخ ابن الاثير (بيروت: دار صادر، 1400هـ)، 1 :5 -

[3] الدكتور عبدالغنى زيتونى، الوثنية فى الادب الجاهلى (صادر بيروت :دارصادر، 1400هـ)، 8-

علاقات اجتماعية وادبية ومن هذا كله يمكن ان نقول انّ مكة كانت اهم مدينة فى شبه الجزيرة العربية وكان مجتمعها يتالف من قريش البطاح الذين ينزلون حول الكعبة وهم : هاشم وامية ومخزوم ويتم وعدى وجُمَحَ وسَهَمَ واسد ونوفل وزهرة وكانوا الاصحاب النفوذ بها ـالحديث عن شعراء مكة قبل الاسلام وشعرهم يستدعى بالضرورة الحديث عن اللغة التى صاغ فيها هولاء الشعراء شعرهم، فالمعروف ان الادب الجاهلى ـ وخاصة الشعر ـ جاء كله بلغة واحدة وصاغة بهذه اللغة الواحدة جميع الذّين نسب اليهم انهم قالوا الشعر من الشعراء شماليهم وجنوبهم. والشئ الاكيد هو ان مكة لم تبرز فى الشعر قبل الاسلام بين القرى العربية اذ كان خطها من الشعر ضئيلا خاملاً ، فالشعر البارزون من مكة انما برغ نجمهم ، وذَاع امرهم فى الاسلام ابان العرب بين مكة ومدينة لا سيما بعد الاحداث الدامية فى غزوتى بدر واحد ـ

اما فى الجاهلية ، فصحيح ان ابا سفيان بن الحارث كان له شعر ، الا انه ضاع ، ولم يحفظ لنا الرواة الا القليل منه ، يقول ابن سلام : ولابى سفيان بن الحارث شعر كان يقوله فى الجاهلية ، فسقط ، ولم يصل الينا منه الا القليل منه. [4]"اسماء شعراء آخرين فى مكة منهم الزبير بن عبدالمطلب ، الذى بقى من شعره الشيئ القليل واجمع الناس على ان الزبير بن المطلب شاعر والحاصل من شعره قليل" كذلك كان حظ اكثر شعراء مكة الذين وردت اسماء هم فى شعراء الجاهلية ، مثل ابى طالب الذى يروى له شعر لا يمكن ان يطمان اليه ذكرها ابن هشام ثم يشك فيها. [5]

وقد يكون السبب فى فحول شعر مكة وقلته ، هو ماذهب اليه ابن سلام ، انما يكثر بالحروب التى تقوم بين الاحياء فهو حرب الاوس والخزرج ، او يتفشى الغارة بينهم ، فيغار عليهم ويغيرون [6] ويبدو ان انشغال قريش بخدمة بيت الله من جهة وبالتجارة من جهة اخرى ، شغل وقتهم فلم يجدوا ما يمكنهم من القيام بامور الجيش والحرب انهم لذلك يستاجروا حبذا من افريقية ، ومن الاحباش ليقوموا مجراستهم. [7] واما الشعراء الذين برزوا فى عهد الدعوة فهم : عبدالله الزبعرى ، وضرار بن الخطاب ، وابو سفيان الحارث وهبيرة بن ابى وهب وهولاء هم شعراء مكة البارزون اما كثرة شعرهم فقد ضاعت بسبب الاحداث السياسية والدينية ، فالاسلام بما هو دعوة دينية جديدة لقى عداء شديداً ونضالاً عنيفاً من مشركى مكة اولا ومشركى جزيرة بعدها وايضاً ابن سلام يعى هذه النقطة

[4] محمد بن سلام الجمعى، طبقات فحول الشعراء، قرآه و شرحه محمود محمد شاكر (القاهرة: مطبعة المدنى ، 1984م)،245ـ

[5] عبدالملک بن هشام ، السيرة النبوية، حققها وضبطها و شرحها و وضع فهارسها مصطفىٰ السقا، ابراهيم الابيارى، (بيروت :طبقه دارالكنور الادبية، ب ت)، 206:1ـ

[6] الجمعى ،طبقات فحول الشعراء، 244:1ـ

[7] شعر عبدالله بن الزبعرى، تحقيق ـ يحيى الجبورى (بيروت: مؤسسة الرسالة ، 1401ه/1986م)، 21ـ

حين كان يتذكر هذه الاحداث وينظر اليها نظرة ثاقبةٌ "كان الشعر علم قوم لم يكن لهم علم اصح منه فجاء الاسلام ، فشاغلت عند العرب ، وتشاغلوا بالجهاد وغزو وفارس والروم ولهت عن الشعر وروايته ، فلما كثر الاسلام وجاءت الفتوح واطمانت العرب بالاعصار ، راجعوا رواية الشعر فلم يؤولوا الى ديوان مدوّن ولا كتاب مكتوب ، والفوا ذلک وقد هلک من العرب من هلک بالموت والقتل ، فحفظوا اقل ذلک وذهب عليهم كثير "[8] ان اغلب الشعر المكى قيل الدعوة و خلالها ، كان شعرا فى مجاء الرسول ودعوته واصحابه وينتصر الدين الجديد فيختفى الشعر المكى خوفاً من جهة اخرى ـ

واذا تيسّر شعراء الانصار ان يدوّنوا شعرهم ، وهو فى نصرة الدين ـ فما كان لشعراء قريش ان يحْذو حَذْوَهم ـ اضافة الى ذلک فجمهور المسلمين كان لا يرضهم حفظ شعر فيه تعريض برسول الله واصحابه ، حتى الرُواة ايضاً وجدوا حرفا فى رواية هذا الشعر كله او بعضه ـ اضافة الى ان بعض الذى وصل من شعر قريش لا يمكن الاطمئنان لصحته ـ

الخصائص المعنوية للشعر الجاهلى

ويقول شوقى ضيف عن الخصائص المعنوية للشعر الجاهلى " لعل اول ما يلاحظ على معانى الشعر الجاهلى انها معان واضحة بسيطة ليس فيها تكلف وبعد،ولا اغراق فى الخيال ـــ" فهو لا يعرف الغلو ولا المغالاة ولا المبالغة ـــ [9] وايضاً يقول شوقى ضيف فى الخصائص اللفظية عن الشعر الجاهلى ـــ انه كامل الصياغة ، فالتراكيب تامة ولها دائما رصيد من المدلولات تعبر عنه ، فقد سبقته تجارب طويلة فى تمصّون العصور الماضية قبل هذا العصر ، وما زالت هذه التجارب تنمو وتتكامل حتى اخذت الصياغة الشعرية عندهم هذه السورة الجاهلية التامة : فالالفاظ توضع فى مكانها والعبارات تؤدى معاينها بدون اضطراب. [10]

جواء الصراعات بمكة فى الجاهلية

الان نحن نطالع جواء الصراعات بمكة فى الجاهلية،تمت فيها الصراعات الدينية الاجتماعية والعصبية وكثرت الشرور والمفاسد ، مما جعل الاسلام ضرورة لاصلاح ذلک كله الفترة الجاهلية اذن كانت مقدمة مهمة حافلة ـ والناظر فى تاريخ العرب يرى بوضوح الى اى درجة تعمقت العصبية فى نفوس العرب فحرب الاسلام على الشعر الجاهلى ولا سيما شعر المكيين قبل الاسلام ، وحتى فى فترة الدعوة حيث كان شعرا غزيراً جريئاً لم يترک الا بعضه الذى يخبر عنه. ان الشعراء الذين عرفوا قبل الاسلام ولهم دواوين يمكن الوصول اليها هم شعراء مخضرمون وبعد دخول الاسلام كان التوبة ،

[8] الجمعى ،طبقات فحول الشعراء،1:245ـ

[9] شوقى ضيف، العصر الجاهلى، 2: 48ـ

[10] شوقى ضيف، العصر الجاهلى، ،2 :219ـ

والاحساس والخجل والحرج مما سبق موضوع اساس فى شعرهم ـ نحن نجد فى الجو المكى الصراع العصبى عماد التنظيم القبيلى الجاهلى، فالعصبية تربط ابناء ما : الفرد للقبيلة والقبيلة للفرد ، مكذا يكتسب الفرد حصانة تكبر بكبر القبيلة و بكثرة شانها و ابطالها ، والعرب قبائلهم يفتخرون بالقوة والامجاد فالفخر شعرا بالذات ، عرفنا ان قريش كانت قبيلة عربية كسائر القبائل وانها عرفت صراعات مع قبائل اخرى ولكن قريشا لم تعرف دائما حياة القبيلة المحاربة لم تقم بغزوات لتسلب القبائل الاخرى ولم ياتها الغزو وكذلک الا نادراً والسبب هو ان قريشا عرفت حياة التاجر من جهة ، ومن جهة ثانية عرفت قريش فى مكة ومكة بلد الكعبة ويعظمها جميع العرب ، يستقيلون الحجيج ، يسقون ، يطعمون ويغدقون بصورة نادرة المثال ـ لهذا كانت قريش تستطيع ان تفتخر كسائر العرب وتفخر اكثر بامجاد دينية واجتماعية معنوية تفردت بها الصراع العصبى.

صراع العصبيات

فى باب صراع العصبيات قد نقل ابن هشام فى كتابه الواقعه الطريفة التى تدل على العصبية القريشية ، كان عوف احد ابناء لوى بن غالب بن فهر واخا كعب الذى كان من سلالته مرة فكلاب فقصى،وفيما كان عوف فى ارض غطفان مع قومه ، سار القوم وتركوه ـ فاتاه ثعلبة ابن سعد الغطفانى ،من بنى ذبيان فضمه اليه وزوجة واخاه ملحقا اياه بنفسه فغدا عوف بن سعد بن ذبيان ويقول ثعلبه فى ذلک :

احْبِسُ على ابن لؤى جملک تركک القوم ولا منزل لک [11]

ومكذا التحقق ابناء عوف، من ولده مُرّة، بنى ذبيان فكانوا اذا ذكر لم نسبهم القديم ونسبهم الجديد ، قالوا عن هذا الاخير "ما ننكره وما نجحره وانه لاَحِبُّ النسب الينا " [12]وهنا ايضا الواقعة الاخرى يشير اليه ابن هشام فى كتابه هو حين هرب حارث بن ظالم بن جذيمه من نعمان بن منذر والتجا الى قريش فامنه رواحة القريشى وحماه وتخلت ذبيان عن نصرته ، لهذا نجد الحارث انما يعرض بذبيان مستشيراً عصبية قريش قائلاً :

فما قومى بثعلبة بن سعد ولا بغزارة الشعر الرقاباً
وقومى ان سَاَلْتَ بنو لُؤَىْ بمكة علّموا مُضَر الضرابا
سَقِهنا باتباع بنى بغيض وترک الاقربين انتساباً
سفاهة مخلف لمّا تروى هراق الماء واتّبع السرابا

[11] ابن هشام، السيرة النبوية، 82:1ـ

[12] ابن هشام، السيرة النبوية، 83:1ـ

وتتجلى العصبية القريشية فى ابلغ مظاهرها حين يندم الحصين على ما قال ويتمنى لو ان لسانه قد مُشق نصفين قيل ان يقول ما قال ـ وتتحرك فى دمه عصبية النسب الحقيقى فيدعى الانتماء الى قريش الى لؤى ، الاب الذى يرقد فى بطحاء مكة كما يدعى ارثا معنوية فى البيت الحرام:

ندمت على قول مضى كنت قلته بيّنت فيه انّه قول كاذب
فليت لسانى كان نصفين : منهم بَكْمٌ ونصف هجرى الكواكب
ابونا كَنَانىّ بمكة قبره بمعتلج البطحاء بين الاخاشب
لنا الرُّبع من بيت الحرام وراثة ورُبع البطاح عند دار ابن حاطب [13]

الصراعات السيادية

السيادة فى مكة هى سيادة على المدينة واهلها والقاصدين اليها وسيادة على الكعبة ، او المهمات التى ترتبط بها كمؤسسة دينية وبطقوسها ـ مكة ليست بلداً زراعياً فقد كانت تجارة كبرى ومن طبيعة التجارة ان توصل البضائع الى ما يحتاجها وفى مكة شبه دولة : الحقوق المحترمة ، والاعتداً على حقوق الآخرين مرفوض ، واذا اتم الاعتداء لا يكون سكوت عنه بل يوجد دائما من يدعو الى وقف الظلم ومنع العدوان لكن منع العدوان يحتاج الى من يضمنه والى من ينفذه لذا عقد القريشيون حلقا على رد المظالم وانصاف المظلوم مثل هناك القصة الشهيرة للتميمى الذى قدم مكة بتجارة اشتراها منه رجل من سهم هو العاص بن رائل فلوى بحقه فاعاد طلبة فامتنع عليه خفام على الحجر وانشد:

يال قصتى المظلوم يَصْناعته ببطن مكة تاتى الدار
واشعت مُحرم لم تُقْضَ حُرْمَتْه بين القوم وبين الحجر والنظر
اقائم من بنى سهم بذمتهم او ذاهب فى والحجر
الممتق فى اخبار قريش ضلال مَالُ مُعّمر [14]

وتتكرر القصة مع قيس بن شيبه السلمى الذى انكر أُبى بن خلف عليه ثمن متاع باعه اياه ، فاستجار برجل من بنى جمح فلم يجره فقال :

يال قَصِىّ كيف هذا فى الحرم فى حُرْمة البيت واخلاف الكرم
اظلِم ومن لا يمنع عنى الظلم فاجابة العباس بن مرداس :
اِن كان جارك لم تنفعك ذمته وقد شربَت بكاس الذُلّ انفاسا
فات البيوت ولن من اهلها صدداً لا تَلْقْ تاديبهم فحشاً ولا باساً ـ [15]

[13] ابن هشام، السيرة النبوية،1:88ـ

[14] ابن حجر العسقلانى المصرى، الاصابة فى تميز الصحابة (بيروت: دار الكتب العلمية،ب ت)، 5:277ـ

[15] محمد بن حبيب البغدادى، المنمق فى اخبار العرب، تحقيق ـ خورشيد احمد فاروق (بيروت: عالم الكتب، 1985م)، 142ـ

فقال سفيان بن عبدالمطلب فرد عليه ماله واجتمعت بطون قريش فى دار عبدالله بن جدعان فكان حلف الفضول۔ فقال بعض فى هذا الحديث :

تيمَ بن مُرة ان سالت وهاشما وزهرة الخير فى دارين جدعان

متى السيف على الندى ،ما غرّرت ورقاء فى فنن ، من جذع كتمان [16]

وسدانة الكعبة ايضاً كانت سبب الفخر لبنى خزاعة بانها انتزعت السدانة من جُرهم ابعدتها من مكة يقول ابو المطهر اسماعيل بن رافع الانصارى يشير الى هذا الصراع :

فلما هبطنَا بطن مكة اَحمدت خُزاعة دار الاكل المُتَحَامل

فحلّت اَكاريسا ، وشتت قنابلا على كل حى ، بين تجد وساحل

تَقَوا جُرهماً عن بطن مكة واحبتوا بعز خزاعى شديد الكَوَاهل

الاجازة بالحجج من عرفه ايضاً كان سبب الافتخار عند المكيّين ۔ كان الغوث بن مُرّ المضرى يلى الاجازة للناس بالحج من عرفة ، وورث ولده ذلک وكان يقال لهم صوفة ۔ وغوث نذر ليكون خادم للكعبة نذرته امه التى لم تكن تنجب بانها ان انجبت تتصدق بولدها على الكعبة عبداً لها ۔ ويقول الغوث بن مُرّ فى ذلک عن لسان امه:

اِنى جعلت رب : من بثنية رَبطة بمكة العلية

فباركَن لى بِها اليه واجعله لى من صالح البريّة [17]

وكانت قبيلة صوفة تدفع بالناس من عرفه وتجيزبهم اذا نفرط من بينى فاذا اتوا الرمى الجمار لا يرى احد حتى يرمى صوفة ، فلا يجوز احد حتى تمر جماعة صوفة والناس تقول : اجيزى صوفة ، وحين انقرض آل صوفة وليت مكانهم سعد بن آل صفوان من تميم وفيهم قال اوس بن تميم لا يَبرح الناس ، ما حجوا ، معرفهم حتى يقال : اجيزى ال صفوانا اما الاقامته من المزدلفة فكانت فى عدوان ، يقول ذو الاصبع العدوانى فى ذلک :

ومنهم كانت السادا ت والمُوفون بانقرض

ومنهم من يجيز النا س بالسُّنة والقرض

ومِنهم حَكَم يقضى فلا يُنقض ما يَقْضِى

صراعات سياسية

صراعات سياسية ايضاً يوجد بين قبائل مكه وهناک امثلة عديدة ومنها :

[16] محمود شكرى، بلوغ الارب، 287:1۔

[17] ابن هشام، السيرة النبوية: 99:1۔

وكان لقُصى اخ من امه هو رِزاح بن ربيعة ، استنجد به فى معركة تاسيس ملكه ـ فلما فرغ قصى من حربه ، انصرف اخوه رزاح الى بلاده بمن معه من ربيعة وقال فى ما جرى قصيدة طويلة تختار منها ـ

لمّا أتى مِنْ قُصيٍّ رسول فقال الرسول أجيبُوا الخَلِيْلَا
نهضا إليهِ نقود الجيادَ ونطرح عنّا المَلولَ الثّقِيْلَا
فَلَمّا انتهينا إلى مكّهٍ أيحنَا الرِّجالَ قَبِيلا قَبِيْلَا
نُعَاوِرُهُم ثم حدّا السُّيُوفِ وفِى كُلِّ أوْبٍ خَلَسْنَا العُقُولَا [18]

الصراع الاقتصادى

الصراع الاقتصادى ايضاً الجوّ الشعرى مكّه مثل حرب الفِجار، كانت قريش جاعة تجارية بامتياز، فهى بدات وسيطا تجاريا تومن ايصال البضائع من طرف الجزيرة الجنوى الى مكة و ومن مكّه إلى الطرف الشمالى و بلاد الشام والعكس صحيح. ثم انتهت بان غدت مؤسسة تجارية نستورد البضائع و تنقلها فى الطريق نفسه، وأهم مايؤمن ازدهار التجارة هو الاستقراء والأمان وقد حرصت قريش على توفيرها باسلوبين، ان سلوب الادّل هو تدعيم فكرة الحرم الّذى تؤمنه مكّه. والحرم يعينى الامان لمن يدحل، على بابهِ تترك الثارات والاغتيارات و اعمال الشغب وقد نجحت فى ترسيخ هذا المبدأ وأفادت منه امانا لزعمائها عند ما الحقتهم جماعة فى حرب الفجار الثانية فاصبحوا آمنين لمجرد دخولهم الحرم. والسبيل الثانى هو تامين الطرق المؤدية إلى الاحلاف تارة و اصطناع الحماة. من رجال القبائل تارة، فوفرت لتجارتها الطرق الآمتة. وإذا كانت قريش ترحّب بجميع القوافل التجارية، ثانى إلى اسواق مكة و تسعى إلى ضمانِ أمنها وسلامتها فى ديارها على الأقل و قد يكون السّلاح وسيلة والاغتياى سببا لا ندلاع حروب، فالثار للمغدور تسال مته قبيلة، باسرها، وهذا وضع حرب الفجار فى شقها المهّم: وحرب الفجار هى الحرب الوحيدة الّتى خاضت قريش غمارها. وفرضت على قريش لم تهيئ لها، ولم تحتط لمثلها، ومع ذلک لم تسمح قريش لهذهِ الحرب ان تطول، ثم تدعو إلى الصلح، وانتهت الحرب. وككل حرب جاهلية، كان فى الفجار كرّوفرّ و كان فيها قتلى من الجانبين و كان فيها، كماقلتا، شعر يفخر، يتحدى ويترفع اويهجو و يُخزى، كما كان فيها رثاء وتفجع--- من شعر الحرب القريشى ماقالَه، ضرارُ بنُ الخطّاب الفِهُرىّ:

وَجئنا إليهم على المضمرات بأرْعَنَ ذِى لَجَبٍ زاخرٍ
فلما التقينا اذْنَاهُمْ طِعَاناً بِسُمْرٍ القنا العاتر
ففرّت سُليمٌ وَلَمْ يعبروا وطارَت شُعَاعًا ينو عامر
وفرّت ثَقِيْفُ إلى لاتها لمُنْقَلِب الخائب الخاسِرُ
وقاتلت العَنسُ شطرَالنّها رِثم، تولّت مع الصّادر

[18] ابن حشام، السيرة النبوية: 100:1

الرثا

والرثا موضوع مهم عند الشاعرات فى مكة والرثاء ما تجلى فى شعر نساء غير معدودات فى الشعراء، ولكنّهن من هذه النخبة التى اشرنا اليها، نخبة من الشعراء فى كموت الموهبة، تكفى مناسبة معاناة لتفجير الموهبة هكذا راحت اميمة بنت عبد شمس ترثى اخاها ابا سفيان بن امية فى قصيدة مميّزة انتربولوجيا اذ تبيّن وضع المراة فى ذلک المجتمع، على تطوره وتمدنه، بالنسبة الى سائر المجتمع الجاهلى، [19] و كذلک راحت فاطمه بنت الأحجم، وأمها خالدة بنت هاشم بن عبد مناف ترثى زوجها الجراح ثم ترثى أخوتها، لقد كانت فجيعتها كبيرة، و رجال كثر من حُماتها فقدتهم نقول فى رثاءِ زوجها۔

يَا عين بكّى عند كل صباح جودى بأربعة على الجرّاح
قد كنت لى جَبّلاً الوذُ بظلّهِ فَتَركتَنِى اضحى بأجرَدَ ضَاح
قد كنتُ ذَاتَ حَمِيّهٍ ، ما عَشِت لِى أمتِى البَرازُ ، وكنتَ أنتَ جَنَاحِى
فاليَومَ أخضَعةَ للذّليل وَ أتقى منه ، وأدفَعُ ظالِمِى بالرّاح

ومِن رِثائها لِأخوتها:

إخوَتى ، لَا تبعِدُوا أبدًا وَبَلى، واللهِ قَدْ بَعِدوا
لو تملّتُهُم عَشِيرَتُهُم لِاقتناء العِزّ أو وَلدوا
هَانَ مِنْ بعض الرزيّة أو هَانَ مِن بعض الّذى أجِدُ
كُلّ ماحيٍّ، وَإن أمرُوا وَارِدُ الحَوض الّذى وَرَوُوا [20]

ماثر مكه و فضائل قريش كانت الموضوع المتهم للشعراء قبل الاسلام والميثرة الاولى لمكة هى انها موقع دينى مرتبط بادارة القوة الالهية و فيه لمسات قدسية، فالكعبة اقيمت بايدٍ بشرية بحسب إحدى الصيغ التاريخية غير الأسطورة، اما الاسطورة الّتى تحت حولها من صنع الملائكة هند ستها وجمعتها و حملتها الى الارض، فرضى عنهم وقال لهم:"ابنوا لى فى الأرض بيتاً بعوذ به من سخطت عليه من بنى آدم، ويطوف حوله، فأرضىٰ عنهم، فبنواله هذا البيت۔" ومن شرف مكه انها كانت لقاحاً، لاتدين لدين الملوک ولو يودُّ اهلاها اثاوة وَلَا ملكها ملک قط من سائر البلدان، تحج اليها ملوک حمير و غسان و كنده ولخم---- وكان أهله آمتين يَغْزُوْنَ الناس وَلا يُغزَون---- وكم تُسْبَ قريشة قط فتوطا قهراً---- ولا يُجالُ عليها بالسهام، وقد ذكر الشعراء عزمهم و فضلهم فغال بعضهم:

ابَوْادِين المُلُوک فَهُم لقاح إذاهيجوا إلى حَرْبٍ أجابُوا

وقال الزبرقان بن بدر لمرجل من بنى عوف كان قدهجا اباجهل و نال من قريش:

---

[19] فاروق أسليم بن احمد، ديوان ضرار بن الخطاب الفهرى (بيروت: دار صادر، 1999ء،)،100۔

[20] شرح الحماسة للاعلم الشمنترى (بيروت: دار صادر، 1997ء،)، 481۔

أتدرى من هجوت ابا حبيب سَلِيلَ خضارمٍ سكنوا البِطَاحاً
أُزاد الركب تذكر أم هشاما وبيت الله والبلدا اللقاحا [21]

أما اهل مكة فكانوا حلفاء متالفين، متمسكين بكثير من شريعة ابراهيم عليه الاسلام ومنهم كان الحُمس والتحمس هو التشدد فى الدين--- وهم الذين منهم هاشم بن عبد مناف الّذى هشم الله يد لقومیه فقيل فيه:

عمروا العلى هَشَمَ الشديد لقومه ورجال مكه مُسنِتُونَ عِجَافِ
سُنت اليه الرملتان كلاهما سفر الشتاءِ وَرِحْلَةُ الأصيافِ [22]

وكان كشف بئر زمزم حدثاً انقلابيا و قدر أينا كيف ارتبط بالأسطورة والقوى العصبية وزاد البعض حتى جعل البشر هذهِ مقدسة عنه الفرس وقد كانت اسلافهم تقصد البيت الحرام و تطوف بهِ تعيظما لجدها ابراهيم و تمسكا بهدية وحفظاً لانسابها--- وكان ساسان إذا اتى البيت طاف بهِ وزمزم على هذهِ البئر فى ذلک يقوم:

زَمْزَمتِ الفُرس عَلَى زَمزِم وذاک فى سَالفها القدم [23]

بل ان بعض زاد فى قدسيتها وقِد مها فجعلها تفجير ابراهيم لها هو عورة إلى ظهور فى حين ان ظهورها الاوّل حققه جبريل لآدم فيقول خويلد بن اسد۔

أقول ، وما قولى عليكم بسبةٍ اليک ابن سلمى ، أنت حَافِرُ زمزم
حقيرة ابراهيم يوم ابن هاجر وَرَكَضَتْه جبريل عَلَى مهد آدم

هَذا، وتديجا جرس القرشيون مكانة لهم أرفع من مكانة سائر العرب أياً علت منزلة بعضهم مكانة استعاروها من قرب الآلهة وتبيتهم ارادتها وَلَرّسوا فى الوقت نفسه منطقة الحرم، محرمة على كل تصرف شاذٍ غير تقى صالحٍ، قحق لحرب بن امية ان يدعو الحضرمى أباسطر، إلى عدم النزول خارج الحرم:

أبامطر ، هلم إلى (صلاح) فيكفيک الندامى من قريش
وتنزل بلدةُ عزت قديما وتأمن أن يزورک رَبُّ جيش
قتأ عن وسطهم و تعيش فيهم أبامطر هديت بخير عيش [24]

نذر عبدالمطلب على هذا الأساس فى رأينا، كان نذر عبدالمطلب يقول اليعقوبى---- اللهم كنتُ قد نذرتُ لک نحرٌ احدهم و إنّى أقرع بينهم، فأصيب بذلک من شئت فاقرع حضارت اتوعه على عبد الله

[21] الحمدى، معجم البلدان،6:463۔
[22] ابن هشام، السيرة النبوية:1:144۔
[23] الحمدى، معجم البلدان،6:646۔
[24] الحمدى، معجم البلدان3 :153۔

وكان احبّ ولده إليه-فانطلق عبدالمطلب بعبد الله ليذبحه وأخذ الشغرة---ونعودمنا إلى القول بأن عبدالمطلب لم يكن مجرد احل من قريش بل هو سيدها و وارث ملكها و مجدها، والالتزام كان محتوما على عبدالمطلب مَهْما غلا الثمن لكن قريشا اقترحت الغداء فكانت هذه الفتوى نوعا من خرج فتحت أُفقا جَدِيداً قام عبدالمطلب يقول:

عاهدت ابى ، وأنا مُوف عهده
أخاف ربى ، ان تركتُ وعده
والله ، لَا يحمدُ شئ حَمْدَه

عند ا ضرب بالقداح عليها فخرجت على الابل فكبّر الناس و قالوا قد رضى ربک فقال:

لهم ربّ البلد الحرم
الطيب المبارک العظيم
أنت الّذى أعنتنى فى زمزم

نحُرت الابل و نودى الناس ليأخذوا لحمها وصارت الديّة مئة من الابل على ماسَنّ عبدالمطلب-

تُبّعُ والكعبة

وبالنسبة الى التُبع فإنتا نهتم بهٖ لارتباطه بتاريخ الكعبة فقد قصدّها متذراً بالثبور أثيرت عنده اطماع فى كنوزها المدفونة فجاءها يبغى تدميرها ونهبها ثم تقضى الرواية بأن يتصل بهٖ رجلاً دين يهوديان يغيران موقفه، فينقلب الى معجب بها وباهلها فسارمن المدينة الى مكة "طاف بالبيت ونحر عنده، وحلق رأسه وأقام بمكة سته ايام ينحربها ويطهم أهلها ويسقيهم العسل-[25]ثم كسا البيت الخصف وغيّره إلى المفاخر و غيرها الى الملاء والوسائل وكان اوّل من كسا البيت--- وجعل لهٗ باباً ومفتاحاً-[26]وتيع هذا، الملک الجنوبى المفرق فى القدم، له شعرٍ فصيح بلهجته قريش وبلغة سلسلة، قريبة المتناول، وفى انسجام مع عروض الشعر الشمالى يقبله ابن خلدون و يذكره فى تاريخهٖ و فيه كذلک ذكر الكعبة و ماعاملها بهٖ من اجلال و احترام وما كساها بهٖ من فاخر القماش اليمانى، يقول تبع ابو كرب -

اذ حسينا جيادنا من دِماء ثم سُرنابها سَيراً بعيداً
والستبحنا بالخيل خيل اقياذ وابنُ إقليد جاءنا مصفودَا
وَكَسَونَا اليت الّذى حرّم الّا مهٗ مُلاءً مُنضَّدا وَبُرُودَا
وَأُقمنا بهٖ الشَّهرَ سمشراً وجعلنا لِبَابهٖ إقليداَ
وَخَرجنَا مِنْهٗ نَؤُمّ سُهَيْلًا قد رَفَعْنَا بوأنَا المعتودا

[25] تاريخ اليعقوبى: (دار صادر بيروت لبنان،) 1 :25

[26] ابن حشام، السيرة النبوية:1 : 125

جُرهم و ملّة

تقول الاسطورة ان جُرهم هو ابن لقحطان وُلى على مكه بعد اَن قام أخوه بطرد عاد منها، وولى بعده ابناءه لعشرة اجيال وإلى جُرهم بعث اسماعيل بن ابراهيم الخليل وبينهم عاش، ومنهم تزوّج و فيها كانت سدانة الكعبة بيد اسماعيل والملك لجُرهم قيل أن قيداد بن اسماعيل جمع المجدين عقدله أخواله الملك على الفجاز وورث من ابيه سدانة اكعبة۔ [27]ويقال ان عمرو بن الحرث بن فُضاٰ التاسبع من ملعک جُرهم شاعراً وينقل الينا شعرله بعربية قريش الضحىٰ يفخر بحكمهم الحجاز ومصاهرة اسماعيل لهم يقول:

وكنّا ولاة البيت من بعد نابتٍ نطوف بذاک البيت والا مرظاهِرُ

وصاهَرنا من اكرمُ الناس والداً فأبناؤه مِنّا ونحن الاصاهِرُ [28]

فإن الافت فى هذا لشعر هو الشاغل الاكبر لكل من عاش فى مكة و تولى أمورها: الفخر، بموضو عين كل منهما يلاعس قدسية عرفها المومنون فى مكّه: قدسية المكان و قدسية النسب۔

الاحباش و مكّه

الاحباش و مكّه ايضاً الموضوع الشعرى عندا شعراء المكيين كانت قريش قد اقامت علاقات حسن جوار مع جميع القوى المحيطة بالجزيره العربية، مع الروم الفرس ومع الحبشة، فقريش قوم اصحاب تجارة والعلاقات الجيّدة أساس نجاح العمليات التجارية، لكن موقع مكه، فى العالم القديم كمركز استقطاب تجارى و دينى جعلها قبلة انظار حديثى النعمة، من الملوک يرون فى السيطرة عليها سيطرة على تلک الامة الاعراب هكذا ابنى ابرهة أشرم، ملک الحبش، كعبة نجران ليصرف الناس عن الكعبة ولمّالَم ينصرفوا، ولم تخط كعبة بالقدسية الّتى تتمتع بها كعبة مكة صمّم على هدمها وتخريبها فكانت حملة الفيل المعروفة وما أصاب جيشه، فى حملتهٖ من مرض لعلّه الطاعون وطبيعى ان يكون محور القول عند الشعراء تاريخ مكه لجهة كونها قرينة من الله عزيزه عنده و طبيعى كذلک ان يصف القريشون انفسهم، إن كانوا هم المتحدثين۔ بأنهم الجماعة الّتى اختارها الله، ترعى بلدة اللهِ ويحميها الله۔ تقيم فيها الفضائل الّتى يدعوا إليهاالرب إنهم يصلون الأرحام ويحفظون العهود والذمم هذا مانجده فى مقطوعة عبدالمطلب ابن هاشم التالية:

ايها الداعى ، لقد اسمعتنى ثَم نادٍ، عن نداكم ، فى صمم

هل يَدُ اللهِ امرُ اَمْ لَهٗ سُنُّةٌ فى القوم ، ليست فى الامم

قلت ، والاشرم تردى خُيلِهٗ إنّ ذا الدشرَمَ غُرَّبالحَرَم

اِنَّ لليَيْت لِرَبًّا مَانِعَا مَنْ يُرِدْهٗ بأشام يَصطَلَمِ [29]

[27] ابى الحسن، الكامل فى التاريخ1 : 224

[28] الحمدى، معجم البلدان،4 : 466

من وجوه ألاسطورة ترک قريش و سائر العرب قتال ابرهه إحالة الدفاع عن الكعبة إالى رب الكعبة، ان عبدالمطلب اخذت له ابل من قبل جيش الاحباش، قطب لقاء ابرهه وساله ردّ إبله إليهِ ولم يرجه ترک الهجوم على الكعبة وحين عجب ابرهه من سلوک سيد قريش كان ردّه المشهور:

"إنّى أنا ربّ الابل و للبيت ربا سَيمَنَعْه۔"

و فيما أخذ على بنى اسرائيل قولهم لموسى النبى:" اذهب أنت وربّک فقاتلا إناهَاهُنا قاعدون۔"فإن رَدّ عبدالمطلب استقطب إعجاب النّاس عبر التاريخ وهذا مارسّخ الايمان بجلال الكعبة وجلال عبدالمطلب فعبد المطلب يترک مكه ويدعو قريشا إلى تركها والاعتصام بالجبال لكنه يمنعها وديعة بين رتها و يَحَثه، على تمايتها:

لَا هُمّ إن العَبْدَ يَمْ　　نَعْ رَجَلَه ، فأمنَعَ حَلائک

لايغلبن صَلِيَتهم　　ومِحَالهم غدواً مَحَالَک

إن كنت تَارَكنَهم وَقلب　　يلتُنا فامرّ ما بدالک

وَما يقوله عبدالمطلب هو لسان حال سائر قريش، فابن اخيه عكرمة بن عامر يتوجه الى رب الكعبة بالدعاء ليهزم القائد الاسود۔ ويقول عكرمه فى سجع يشبه الرجز ۔

لَاهُمّ أخزِ الاسودين مقصود　　الآخذ الجهمة فيها التقليدُ

بينَ حراءَ و ثبِيرُ فالبيد　　يحبسها وهى اوَّلَات التطريد

فضمها الى طماطِمِ سُود　　أخفزه ياربّ وأنت محمود[30]

ويكرّس طالب بن ابى طالب التدخل الالهى يمنّ به على قومهِ إذ لولاهُ لما قامت لهم قائمة ولا بقى لهم مال يرعى:

ألم ثعلموا ماكان فى حربِ داحِسٍ　　وحبْشٍ الى يكسُومَ إذً ملأوا الشِّعبَا

فَلَولا دِفاع اللهِ لَا شئ غيرهُ　　لاصبحتهم لا تَمْتَعُونَ لكم سِرْبَا[31]

خلاصة البحث

وتتجلى من هذا البحث أن شعراء مكة الكبار نظموا قصائدهم فى أحداث جسام مرّت بها مكة أو قريش وما حُفظ من هذهِ القصائد هو ما قيل فى معارضة الدعوة الاسلامية فى يدد ظهورها أوفى امتداحها والدفاع عنها قبلا وبعداً هذا ما حفظه المسلمون واراد الشعراء انفسهم أن يذكروا بهِ۔ بعد الفحصَ يرزنا مظاهر حياة الجاهلية من كل جوانبها و كل الاخبارُ والروايات التى تظهر الفكر العربى حينذاک متطويا على خيال مبدع و تطور على الاصعدة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية۔

---

[29] أبى العباس احمد بن على القلفشندى، صبح الأعشى (مصر: المؤسسة المصرية العامة)، 4 : 261۔

[30] أبى العباس احمد، صبح الأعشى، 4 : 262۔

[31] ابن هشام، السيرة النبوية:1 : 511۔